الميثاق

تأليف

خالد بن علي المرضي الغامدي

حجية الميثاق

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فهذه رسالة مختصرة في الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم، وقد كان أصلها دروس ألقيتها ضمن شرح لمتن العقيدة الطحاوية، وقد أشار علي بعض الإخوة بإخراجها مع غيرها من الأبواب والمواضع في هذه العقيدة المباركة على شكل مباحث، ورأيت من المصلحة إجابتهم لذلك، وقد تيسر الفراغ من مراجعة كثير مما قمت بشرحه في بعض الأبواب، ومن بين هذه المباحث الهامة موضوع الميثاق، حيث يسر الله بفضله القيام بمراجعته بعد إلقائه وحذف ما تستدعيه المصلحة وإضافة ما يستلزم حتى يخرج في أبهى حلة.

وقد جاءت هذه الرسالة في ثمانية مباحث، وستين مسألة؛ فالمباحث كما يلي:

الأول: تعريف الميثاق.

الثاني: أدلة الميثاق.

الثالث: شرح آية الميثاق.

الرابع: صفة الميثاق حسب وروده في الأحاديث.

الخامس: الأقوال في الميثاق.

السادس: تحرير محل النزاع ومنشأه.

السابع: أدلة المخالفين والرد عليها.

الثامن: مسائل متفرقة وهي ستون:

١ـ موضوع الميثاق.

٢ـ علاقته بأبواب الاعتقاد.

٣ـ حجية الميثاق.

٤ـ أنواع الحجج على التوحيد.

٥ـ علاقة الميثاق بالتعذيب يوم القيامة.

٦ـ هل أخذ على الملائكة؟

٧ـ هل أخذ على الجن؟

٨ـ هل أخذ على آدم وحواء؟

٩ـ ميثاق الأنبياء.

١٠ـ موقع الكفار فيه.

١١ـ أطفال المشركين .

١٢ـ هل ورد في القرآن؟

١٣ـ من أين جاءت تسميته؟

١٤ـ لماذا سمي بالميثاق؟

١٥ـ هل نشعر بالميثاق؟

١٦ـ متى حصل وأين؟

١٧ـ معنى الأخذ وإطلاقاته.

١٨ـ الأمور الحاصلة في الميثاق.

١٩ـ ترتيب هذه الأمور.

٢٠ـ صفة الأخذ.

٢١ـ علاقة الأخذ بالمسح والاستخراج.

٢٢ـ كيف خرجت الذرية وصفة ذلك؟

٢٣ـ ومن أين خرجت؟

٢٤ـ الجمع بين مسح الظهر وضرب المنكب والكتف.

٢٥ـ كم مرة مُسح ظهر آدم؟

٢٦ـ هل خرجت الذرية من آدم أو بنيه؟

٢٧ـ القدر الذي خرج.

٢٨ـ علاقته بالخلق.

٢٩ـ هل خلقت الأرواح؟

٣٠ـ أين ذهبت الذرية بعد الميثاق؟

٣١ـ أعظم ما حصل في الميثاق.

٣٢ـ أركان الشهادة.

٣٣ـ معاني الشهادة.

٣٤ـ شهادتهم على أنفسهم.

٣٥ـ مَن شهد على الذرية؟

٣٦ـ معنى الشهادة.

٣٧ـ الفرق بين الإشهاد والميثاق.

٣٨ـ الحكمة من الإشهاد.

٣٩ـ مَن شهد بالميثاق وعليه؟

٤٠ـ شهادة اللسان المقال والحال.

٤١ـ هل نشعر بالشهادة؟

٤٢ـ انقسام الناس في الميثاق.

٤٣ـ متى حصل الانقسام وكيف؟

٤٤ـ صفة قسمتهم.

٤٥ـ هل خرجت الذرية من موضع أو موضعين؟

٤٦ـ شهادة القسمين.

٤٧ـ متى حصل وترتيب الانقسام؟

٤٨ـ موقعه من أمور الميثاق.

٤٩ـ الإفاضة والخلط.

٥٠ـ عرض الذرية على آدم.

٥١ـ الأمور التي عُرضت على آدم ورآها.

٥٢ـ صفة العرض.

٥٣ـ جهل آدم بذريته.

٥٤ـ إرجاع الذرية إلى صلب آدم.

٥٥ـ هل استشكل الصحابة الميثاق؟

٥٦ـ هل يُضلل المخالف؟

٥٧ـ سبب خلاف القدرية في الميثاق.

٥٨ـ هل يُعذر الجاهل في الميثاق؟

٥٩ـ الغفلة والتقليد في الميثاق وعوارض الأهلية.

٦٠ـ هل يوجد إشكالات في الميثاق وما الواجب فيه؟

هذه خلاصة ما جاء في هذه الرسالة، وقد حاولت إعطـاء الموضـوع حقه مع مراعاة جانب الاختصار، مع العلم أن كل مسألة أصـلها مـستنبط من نص لأنه لا مجال للاجتهاد في مثل هذه الأمور.

هذا فما كان في هذا البحث من صواب فمِن الله وحده، وما كـان فيـه من خطأ فمني ومن الشيطان والله أعز وأكرم واستغفر الله وأتوب إليه .

اسأل الله أن يجعل هذا العمل مباركاً وخالصاً لوجهـه ويتقبلـه عنـده ويكتب له القبول، والله أعلم وصلى الله وسلم عـلى نبينـا محمـد وعـلى آلـه وصحبه أجمعين.

كتبه: خالد بن علي المرضي

غرة المحرم ١٤٢٣ هـ

بدار غامد

المبحث الأول

تعريف الميثاق

لغة: من الوثق وهو الشد والربط والأخذ والعهد.

شرعاً: ما أخذه الله على البشر – آدم وذريته – بأن يوحدوه وألا يشركوا به شيئاً، وشهدوا بذلك، وقد حصل فيه أمور؛ منها مسح الله بيمينه ظهر آدم، ثم استخرج بهذا المسح الذرية ثم أشهدهم على وحدانيته فشهدوا بذلك، ثم شهد الله عليهم وشهدت الملائكة عليهم، وبعده قسمهم فريقان.

هذا خلاصة الميثاق الذي أخذ على البشر وشهدوا عليه.

المبحث الثاني

أدلة الميثاق

أولاً: أدلة الميثاق من القرآن:

ورد ذكر الميثاق في القرآن في موضع واحد في سورة الأعراف، وقد حصل اختلاف في فهم الآية حسب تصور الميثاق واعتقادهم فيه كما سيأتي، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ .

ثانياً: أدلة الميثاق من السنة:

١- عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة- فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا قال ألست بربكم، وقرأ الآية**». رواه النسائي وأحمد وابن جرير وابن أبي عاصم والحاكم، وصححه الألباني مرفوعاً لكثرة طرقه وشواهده، وأخطأ من أوقفه .

٢- وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يقال للرجل من أهل النـار يـوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً بـه؟ قـال: فيقول نعم. قال: قد أردت منك أهون من ذلك؛ قد أخذت عليك في ظهـر آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك**». متفق عليه.

وهذا الحديث أصح ما في البـاب، ومـن قـال إن هـذا الحـديث غـير صريح في الميثاق فهو بعيد كل البعد.

٣- سُئل عمر بن الخطاب ﷺ عن هذه الآيـة - آيـة الميثـاق- فقـال: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال: «**إن الله تبارك وتعالى خلـق آدم ثـم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منـه ذريـه فقـال: خلقـت هـؤلاء للجنـة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح على ظهره فقال: خلقـت هـؤلاء للنـار وبعمل أهل النار يعملون**». فقال رجل: يا رسول الله ففـيم العمـل؟ فقـال رسول الله ﷺ: «**إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتـى يموت على عمل آهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار اسـتعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار**».

رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن حبان وغيرهم.

٤- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قـال رسـول الله ﷺ: «**لمـا خلـق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامـة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيص من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب مَن هؤلاء؟ فقال: هم ذريتك. فرأى رجل منهم فأعجبه وبيص مـا بين عينيه فقال: أي رب من هذا؟ فقال عز وجل: هذا رجل من آخر الأمـم من ذريتك يقال له داود. قال: رب كم عمره؟ قال: ستون سـنة. قـال: رب زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قـال: أولم يبق من عمري أربعين عامـاً؟ قـال: أولم تعطهـا ابنـك داود؟ قـال: فجحـد فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته**». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وقال الحاكم في مستدركه: هو عـلى شرط مسلم.

٥- عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم قال: أخذوا من ظهره كـما يؤخذ بالمشط من الـرأس فقـال لهـم: ألـست بـربكم فقـالوا: بـلى، فقالـت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**». أخرجه ابـن جرير.

٦- عن هشام بن حكيم ﷺأن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أنبدأ الأعمال أم قد قضي القضاء؟ فقال رسـول الله ﷺ : «**إن الله أخـذ ذريـة آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه، ثـم قـال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار**». رواه البيهقي وابن جرير وأحمد والحاكم مع اختلاف في المتن، وصححه الألباني بطرقه.

٧ـ عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قـال: «**خلـق الله تعـالى آدم حـين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيـضاء كـأنهم الـذّر وضرب كتفـه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم؛ فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كفه اليـسرى: إلى النـار ولا أبـالي**». رواه الإمـام أحمـد والبزار والطبراني وابن عساكر.

٨- حديث أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول ﷺ: «**لما خلق الله الخلق وقـضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله فقال: يا أصحاب اليمـين، فقالوا: لبيك وسعديك. قال: ألست بربكم؟ قالوا: بـلى. وقـال لأصـحاب الشمال مثل ذلك، ثم خلط بينهم فقال قائل: يا رب لم خلطت بينهم؟ قـال: لهم أعمال دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنـا كنـا عـن هـذا غافلين، ثم ردهم في صلب آدم**». رواه الطبراني وابن مردويه وفيه ضعف.

٩ـ حديث أبي بن كعب ﷺ قـال في قولـه تعـالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ الآية.

قال أُبي: «جمعهم فجعلهم أرواحاً ثم صورهم فاستنطقهم فتكلمـوا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قـال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأراضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غـيري ولا رب غيري فلا تشركوا بي شيئاً، إني سأرسل عليكم رسـلي يـذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنـزل عليكم كتبي. قالـوا: نـشهد بأنـك ربنـا وإلهانـا لا رب لنا غيرك، فأقروا بذلك، ورفـع علـيهم آدم ينظـر إلـيهم فـرأى الغنـي والفقير وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: ربي لولا سـويت بـين عبـادك. قال: إني أحببت أن أشكر، ورأى الأنبياء فيهم مثـل الـسرج علـيهم النـور خصوا بميثاق آخر في الرسالة والنبوة وهـو قولـه: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ ﴾ الآية. أخرجه الإمام ابن جرير في تفسيره موقوفاً.

المبحث الثالث

شرح الآية حسب ما ورد في الأحاديث

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾.

يخبر الله عز وجل رسوله محمد ﷺ عن هذا الميثاق العظيم الذي أخذه على آدم وذريته، فأخذ أي استخرج الذرية حين مسح بيمينه عـلى ظهـر آدم فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها، وقد أخذهم الله كما يؤخـذ بالمـشط من الـرأس عنـد الامتـشاط حتـى اكتملـوا أمامـه، ثـم خـاطبهم وسـألهم وأشهدهم، فهذا الاستخراج والمسح من ظهر آدم ليأخذ منهم الميثاق وهـو الإقرار على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾.

جاء في الآية أن الأخذ من بني آدم، وجاء في الأحاديث أن الأخذ من آدم نفسه ولا تعارض؛ لأن استخراج الذرية وأخذهم من بني آدم لا ينـافي خروجهم من ظهر آدم فيكون خروجهم على أحد احتمالين:

الأول: أنهم خرجوا من ظهر آدم دفعة واحدة حتى اكتملوا بين يديه.

الثاني: أن يكون صفة خروجهم جيل بعد جيل وذرية من ذرية حتـى اكتملوا وخرجت آخر نسمه من بني آدم سيخلقها الله.

والثاني هو الأظهر كما جاء في الآية، ولا يعني ذلك أنهم ما أشهدوا وما خرجوا وأخذوا من ظهر آدم تلك الساعة .

قوله تعالى: ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾.

المعنى أن أخذهم واستخراجهم عن طريق الظهر لأن ذرية الإنسان في صلبه وظهره قبل أن يخرجوا منه منياً يصب في الرحم، ودليله قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ ﴾.

والصلب أي صلب الرجل وظهره، وهذا تأكيد لصفة الخروج أنها من آدم ومكان الخروج من الظهر، وقد جاءت الأحاديث مفسرة ومبينة وشارحة للآية وفسرت كيف خرجوا وأخذوا من ظهر آدم، وذلك كان بمسح ظهر آدم بيمينه تعالى فتساقطت الذريات، فخرجت كل ذريه من ظهور آبائهم حتى خرجت آخر نسمة سيخلقها الله من البشر جيل بعد جيل حتى اكتمل الخروج والأخذ، فنثرهم الله أمامه وعرضهم على آدم، وجاء في الحديث أن صفة خروجهم من ظهر آدم حين أخذوا واستخرجوا بالمسح على ظهره كما يؤخذ المشط من شعر الرأس إذا مشط، فسبحان من خلق فسوى وقدر فهدى.

وجاء في الآية الجمع ظهورهم أي ظهور بني آدم، وفي الحديث ظهـره أي أنه ظهر آدم، ولا تعارض كما قدمنا آنفا من كون الخروج ذرية من ظهـر ذرية وجيل مـن جيـل حتـى اكتملـوا في الخـروج في سـاعة واحـدة أولهـم وأخرهم، وكون خروجهم بهذا الشكل لا ينافي مطلقاً أنهم خرجوا من ظهر آدم، فحين مسح الله ظهره مسحت معه ظهور ذريته، فخرج أبنـاءه وخـرج من ظهور أبناءه أحفاده ومن ظهـور أحفـاده أبنـائهم حتـى خرجنـا نحـن وخرجت الأجيال التي بعدنا من ظهورنا إلى أخر جيل تقوم عليهم الساعة قد خرجوا وسقطوا من ذلك الظهر الأصلي ظهر الأب، واكتملـت الذريـة من آدم وحواء وأبناءه إلى آخر بشر من ولد آدم ستنفخ الروح فيه ثم ردهـم الله إلى ظهر آدم بعد الميثاق كما سيأتي .

ومن ظهورهم: بدلاً من بني آدم.

قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ .

فيها قراءتان:

١ـ ذريتهم.

٢ـ ذرياتهم

والمعنى: إن المستخرجين المأخوذين هم الذرية الذي مناط التكليف عليهم وهم المعنيون بالميثاق، فما أخرجهم الله وخاطبهم قبل حياتهم التكليفية إلا لأخذ العهد والميثاق عليهم بأن يوحدوه قبل أن يكلفوا ويخرجوا في حياتهم المعهودة المشاهدة التي نحن فيها، ثم بعد خروجهم قسمهم، وحيز أهل الجنة وأهل النار، وسيأتي أن في الآية قولاً ثانياً ترده الأحاديث.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾.

هذا سبب إخراجهم وهذه العلة من كون الله استخرجهم قبل حياتهم التكليفية لأجل الشهادة على التوحيد، وأشهدهم أي أخبرهم وأعلمهم وألزمهم مقتضيات الشهادة.

فهذه الشهادة كانت على التوحيد والفطرة وألا يشركوا بالله شيئاً.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

هنا كانت الشهادة على أمرين:

الأول: التوحيد وترك الشرك فشهدت الذرية أن الله وحده المعبود دون سواه، وأن هذا أمر معلوم قامت به الحجة.

الثاني: الالتزام بهذه الشهادة والشهادة على أنفسهم أنهم شهدوا.

فهم شهدوا أولاً على التوحيد، ثم شهدوا على أنفسهم أنهم شهدوا وأقروا.

فالميثاق مكون من الشهادتين؛ الشهادة بالتوحيد والشهادة عليه، وليست مجرد واحدة، ثم بعد أن شهدوا شهد ربهم عليهم وأخذ العهد عليهم، فمن قال لا إله إلا الله في حياته فهي شهادة لتلك الشهادة الأولى والتزام بها وعمل بذلك الإقرار الأول والميثاق السابق، ومن لم يقل لا إله إلا الله ولم يشهد بها فقد كذب شهادته ونقض إقراره وخالف ما التزم به فاستحق العقاب المغلظ ولكن العقاب لا يقع إلا بتكذيب الرسل رحمة من الله.

قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

هذا الاستفهام استفهام تقرير أي لتقرير أنه المستحق للعبادة وحده، وأنه سبحانه الرب الخالق الرازق فاستحق أن يكون هو وحده المقصود والمدعو والمعبود المحبوب، فهو واحد في ربوبيته وواحد في ألوهيته، وهذا الاستفهام هو خلاصة الميثاق أخرجوا من أجل إقرارهم على هذا الإقرار وإشهادهم على هذه الشهادة: ألست بربكم؟ ألست المستحق للعبادة؟ وأنه لا يشترك معه فيها أحد، بل ويكفر بكل شرك وشريك دونه، فنشهد ربنا بهذا فاكتبنا مع الشاهدين.

وليس المـراد مـن هـذا الاسـتفهام والإقـرار إقـرارهم عـلى ربوبيتـه وسؤالهم عنها مَن الخالق الرازق لأن هذا لا يحتاج إلى إقرار وشـهادة فكـل كافر معترف ومقر أن الخالق هو الله إلا مستكبر ومعاند، ولكن المقصود من هذا الاستفهام والإقرار هو سؤالهم عن لازم ربوبيته لهـم، فـلازم الربوبيـة إفراده بالألوهية والعبودية له سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ﴾.

القول هنا لكل البـشر بـما فـيهم آدم حتـى آخـر نـسمة سـيبرئها الله، والقول هنا حقيقي و كلام مسموع وخطـاب مفهـوم، ولـيس القـول هنـا معنوي نفسي إلزامي، بل تكلمت الذرية والبشر جميعهم، فتكلمنـا في عهـد آدم وشهدنا، وخاطبنا الله على صفة لا نعلم كيفيتها ونؤمن بذلك كما ورد.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ ﴾.

هذا الجواب الذي أُخذ منا والإقرار والشهادة التي التزمناها وآمنا بها والتي بعثت الرسل من أجل تأكيدها وتجديد العهد والشهادة عليها.

قوله تعالى: ﴿شَهِدْنَآ﴾.

وهذا استنطاق لكل نسمة وإنسان سيخلقه الله، فقالوا حقيقة وبكلام يسمع: بلى أنت ربنا المعبود وحدك ونشهد على ذلك، وليأخذ الميثاق علينـا بهذا التوحيد والشهادة بـه، وليـشهد كـل واحـد عـلى نفـسه بهـذا الميثـاق، وليشهد بعضنا على بعض أننا شهدنا وأقررنا، فما للبشر من حجة بعد هـذه الحجة القاطعة التي تعتبر الفطرة من آثارها، والرسـل مـن أجـل تأكيـدها وتجديد العهد عليها.

والشاهد هنا محل خلاف للسلف على أقوال:

١ـ إن الذي قال شهدنا هم الذرية كما تقدم عن ابن عباس.

٢ـ إن الشاهد هنا هو الله سبحانه وتعالى شهد على البشر أنهم شـهدوا وأقروا.

٣ـ إن الشاهد هنا هي الملائكة كما في حديث عبـد الله بـن عمـرو بـن العاص رضي الله عنه المتقدم ويصير الكلام بعده أن تقولوا من كلام الملائكة.

٤ـ إن الشاهد هنا آدم والذرية بعضها على بعض كل إنسان شهد على غيره، وهذا داخل في الأول.

٥ـ إن الشاهد سـائر المخلوقـات مـن الـسماوات الـسبع والأراضـين وغيرها على البشر والذرية، وهذا جاء في أثر موقوف على أبي بن كعب جاء في المسند ورواه ابن جرير.

والقول الصواب:

إن جميع من سبق شهد على الميثاق وعـلى البـشر- الـرب عـز وجـل والملائكة والبشر أنفسهم - شـهدوا عـلى أنفـسهم وشـهدوا عـلى بعـضهم بعض بأنهم أقروا، وسائر المخلوقات شهدت الميثاق وشـهدت عـلى البـشر فيه وعلى إقرارهم.

والشهادة على أمرين:

الأول: على التوحيد وترك الشرك.

الثاني: على الشهادة عليه والميثاق فيه والإقرار به.

مسألة: مواضع الوقف في الآية:

الأول: الوقف على بلى، ويصير المعنى قالت الذرية بلى أنت ربنـا، ثـم قال الله أو قالت الملائكة:شهدنا أن تقولـوا يـوم القيامـة إنـا كنـا عـن هـذا غافلين، أي شهدنا عليكم حتى لا تدّعوا الغفلة يوم القيامة.

الثاني: الوقوف على شهدنا، ويصير المعنى قالت الذرية بلى أنـت ربنـا شهدنا على ذلك وأقررنا به، والكلام بعده أن تقولوا مستأنف من كـلام الله

سبحانه أو الملائكة، أي لا تقولوا يوم القيامة بعد هذه الشهادة كنا غـافلين. وكلاهما صحيح ووارد في قراءة متواترة.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

هذه الحكمة من أخذ الميثاق على الذرية، والمعنى اشـهدوا أو شـهدتم أو أشهدهم على التوحيد والميثاق لئلا يقولـوا إنـا غـافلون أو مقلـدون، أو كراهية أن تدّعوا الغفلة بعد هذا الإشهاد.

وقُرأت: أن يقولوا. أي حتى لا يقولوا.

وهذا القول محله يوم القيامة؛ فيأتي الكافر يـوم القيامـة ويقـول أنـا لم أشهد أو كنت غافلاً عـن الميثـاق جـاهلاً بـه ونحـوه مـن الأعـذار، فيـأتي الرسول فوق ذلك مكذباً لظنه وزعمه فيدخل النار، ثم يُسئل كما في حديث أنس في الصحيحين: «لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: نعم. فيقال له: قد أردت منك أهون من ذلك؛ قـد أخـذت عليـك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾.

أي غافلين عن هذا الميثاق والإقرار بالتوحيـد والإشـهاد والـشهادة، ولذلك الله يحب العذر، فيقطع العذر عليهم بإرسال الرسل تأكيـداً علـيهم وتكذيب لزعمهم حتى يدخل الكافر النار بتفريطه وظلمه وتكذيبه، وهذا من عدل ربنا أرحم الراحمين.

قولـــه تعـــالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

وهذه الحجة الثانية للكفار يوم القيامـة وهـي ادعـاء التقليـد والأولى ادعاء الغفلة، والمعنى كسابقه حتى لا تقولوا أو كراهية أن تقولوا وتقدم أن هذا يوم القيامة من الكافر، ومعنى إنما أشرك آباؤنـا مـن قبـل أي إن الـذي بدل الميثاق وأشرك وكذب الشهادة آباؤنا من قبل مجيئنا، ونحن كنا ذرية من بعدهم يعني خلقنا وأوجدنا بعدهم وبعد تغييرهم الميثاق، وقد ولـدنا عـلى هذا الشرك فلم نعلم بهذا الميثاق الأول والعهد والشهادة فقلدنا آباؤنـا ظنـاً منا أنه الحق الذي أمرتنا به وأشهدتنا عليه.

فللكفار يـوم القيامـة ادعـاءان وشـهادتان وحجتـان عـلى تكـذيبهم الميثاق:

١ـ ادعاء الغفلة والجهل.

٢ـ ادعاء التقليد للآباء.

واعلم أنهم كاذبون وقد كذبهم الله تعالى في ادعائهم لأنهم كانوا يستطيعون معرفة الحق والعمل به، وسيأتي العذر بالجهل في الميثاق إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

أي كيف تعذبنا يا رب بعمل هؤلاء الذين بدلوا ونقضوا العهد والميثاق من أبائنا ولم نعلم بهم، ولا بأنهم نقضوا، ولم ندرك ونعلم عن هذا الميثاق والعهد، ولم يخبرونا بأنهم نقضوه وأبطلوه.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

أي بمثل هذا البيان والكلام البليغ نفصل الآيات ونوضحها ومن أعظمها الميثاق على معرفة الله عز وجل والإقرار بإلوهيته وإفراده سبحانه بالعبادة لكل الناس مسلمهم ومشركهم يرجعون إلى الله وإلى عهدهم وميثاقهم وما التزموا به وشهدوا عليه من أنه لا إله إلا الله ولا معبود بحق سواه والحمد لله رب العالمين.

هـذا خلاصـة القـول في تفـسير الآيـة، وبـه يُعلـم أن الآيـة فـسرتها الأحاديث، وأن الأحاديث أوضحت بعضها بعضاً، والحمد لله الذي فصل الآيات وأوضحها أيما إيضاح، فكيف بعد هذا يـدعى التأويـل في الآيـة أو أنها على خلاف الأحاديث كما هو القول الثاني الذي يفسر الميثـاق بـالفطرة، والشهادة بالإقرار بالربوبية، والإخراج التوالـد الحـسي المعـروف، وسـيأتي قولهم والرد عليه قريباً إن شاء الله بعد توضيح الميثاق وبيان صفته وحقيقته حسب ما ورد في الأحاديث والآثار.

المبحث الرابع

حقيقة الميثاق وصفته مفصلاً كما ورود في السنة

الله عز وجل بعد ما خلق آدم وأنزله من الجنة إلى الأرض اقتضت حكمته أن يأخذ ميثاقاً بالتوحيد على ذريته يكون حجة عليهم، وذلك لأمور يعلمها وقدرها سبحانه وتعالى وصفته وبدايته كما يلي:

أولاً: المسح:

مسح الله تعالى بيمينه على ظهر آدم بوادي نعمان في عرفة فاستخرج وأخذ بهذا المسح كما يؤخذ بالمشط من الرأس، فسقطت كل نسمة سيخلقها الله إلى يوم القيامة من ظهر آدم بعد المسح فتساقطوا من ظهره حتى اكتملوا بين يديه ونثرهم أمامه.

وإخراجهم إما دفعة واحدة أو كل ذرية من صلب أبائهم جيل بعد جيل حتى اكتملوا فنثرهم أمامه كهيئة الذر.

وطريقة إخراجهم إما أن يكون بمسحةٍ واحد أو بمسحتين؛ المسحة الأولى استخرج بها أهل اليمين من صفحة ظهر آدم اليمنى بيض الصور، والمسحة الثانية استخرج بها أهل الشمال من صفحة ظهر آدم اليسرى سود صورهم.

ثانياً: الإشهاد:

ثم بعد المسح استشهدهم وخاطبهم وكلمهم قِبَلاً وناداهم فأجـابوه حقيقة إما مجتمعين أهل اليمين والشمال، أو إنه سبحانه نـادى أهـل اليمـين فأجابوه فـسألهم واستـشهدهم، ثـم نـادى أهـل الـشمال فأجـابوه فـسألهم واستشهدهم.

ثم أشهد عليهم جميعاً نفسه سبحانه وملائكتـه وأبـوهم آدم، وصـفة إجابتهم: «لبيك وسعديك يا رب» فيسأل: ألست بربكم؟ فيقولون: بلى يا رب.

وهنا مسألة وهي هـل استـشهد الله أهـل اليمـين بعـد مـا اسـتكمل الإخراج إخراج أهل الشمال أو استشهدهم قبل استخراج أهـل الـشمال؟ وهـل استـشهد أهـل اليمـين بمفـردهم وأهـل الـشمال بمفـردهم أو مـع بعضهم؟ وردت أحاديث بالمعنيين والله أعلم، وسيأتي تحقيق المسالة.

ثالثاً: القسمة:

بعــد أن مــسح الله تعــالى ظهــر آدم واســتخرج الذريــة وكلمهــم واستشهدهم على الميثـاق والتوحيـد، وشـهد الله وخلقـه علـيهم قـسمهم سبحانه قسمين، وقد جاءت الأحاديـث لإثبـات ذلـك بألفـاظ وصـفات مختلفة:

الأولى: يا أهل اليمين ويا أهل الشمال.

الثانية: هؤلاء في الجنة برحمتي ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي.

الثالثة: هؤلاء في الجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء في النار وبعمل أهل النار يعملون.

ولا يمنع أن يكون الله سبحانه وتعالى قال هذه العبارات وتكلم بها جميعها في موضع أو مواضع والله أعلم.

وجاء في بعض الأحاديث أنه سبحانه قبل قسمتهم أفاض بهم في كفيه ثم قسمهم لأهل اليمين وأهل الشمال.

ثم هنا مسألة وهي هل كان التقسيم قبل الإشهاد أو بعده؟ سيأتي بيان ذلك.

رابعاً: الإفاضة والخلط:

وبعد ما أفاض الرب بالذرية في كفيه وقسمهم ثم خلطهم مرة أخرى كما في حديث أبي أمامه وفيه ضعف، وقال حين سأل عن ذلك الخلط – سأله آدم – قال سبحانه: لهم أعمال دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

وهل ما كان من إفاضة بهم في كفيه وقسمتهم ونداء كل على حال، ثم خلطهم بعد الإشهاد وتمام الميثاق أو قبله؟ جاءت الروايات بالمعنيين.

خامساً: الشهادة عليهم:

ثــم بعــد أن استــشهدهم شــهد علــيهم وأشــهد علــيهم الملائكــة والسماوات والأرض وآدم.

سادساً: العرض على آدم:

ثم بعد أن أشهدهم ربهم في وقت الإخراج عرضهم عـلى أبـيهم آدم ورأى ذريته، وفي حديث أبي بن كعب الموقوف أنه بعدما أشهدهم وأشـهد آدم عليهم رفع آباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فـيهم الغنـي والفقـير وحـسن الصورة ودون ذلك، فقال: يا رب لو سويت بين عبادك، فقال: إني أحببـت أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء أي في ذريته مثل السرج عليهم النـور، ورأى وبيص ما بين أعينهم، ورأى داود عليه السلام وأعجبه وأعطاه مـن عمـره أربعين سنة حين سأل ربه عنه فخبره ثم جحدها آدم في آخـر حياتـه ونـسي هذه الهبة حين جاءه ملك الموت يقبض روحه.

وهنا مسألة: هل ما حصل من رفع آدم حتـى رأى ذريتـه وعرضـهم عليه كان بعد أن أشهدهم أو قبل أن يشهدهم؟ في حديث أُبي يفهـم الأول بعد أن أشهدهم.

وهل كان عرضهم على آدم بعدما قسمهم؟ وهل كان بعدما خلطهـم أو قبله؟ وهل رآهم مميزين بعد أن عرضهم عليه أو لا؟ وسيأتي بيانه.

سابعاً: إرجاع الذرية لظهر آدم:

ثـم بعـد هـذا ردهـم الله تعـالى إلى صـلب آدم بعـد أن اسـتخرجهم وأشهدهم وقسمهم وعرضهم عـلى أبـيهم أرجعهـم الله وردهـم إلى ظهـر أبيهم آدم، وهذا كله قبل أن يأتيه شيئاً من الولد، فـسبحان العظـيم المتعـالي الرحيم الوالي الحي القيوم ذو الجلال والإكرام.

هذا خلاصة ما جاء في الأحاديث من صفة الميثاق وحقيقته وما جرى فيه:

١ ـ المسح.

٢- الإخراج.

٣- الإشهاد.

٤- التمييز والقسمة.

٥- الإفاضة والخلط.

٦- الإشهاد عليهم ليتزيد.

٧- عرضهم على أبيهم آدم ورفعه عليهم حتى رآهم.

٨- ردهم إلى صلبه مرة ثانية بعد كل ذلك.

فهذه الأمور كلها حصلت قبل أن يخلق الله البشر وهـم في عـالم الـذر في عهد أبيهم آدم والله أعلم.

وسنأتي على بيان للمسائل التي توضح ما جرى في الميثاق إن شاء الله.

فائدة:

الأحاديـث في الميثـاق ليـست عـلى درجـة واحـدة؛ منهـا مـا ورد في الصحيحين، ومنها ما هو أقل من ذلك درجة في الـصحة، ومنهـا الحـسن، ومنها الضعيف، ومنها المرفوع ومنها الموقوف.

المبحث الخامس

الأقوال في الميثاق

اختلف أهل العلم في الميثـاق، وفي فهـم الآيـة، وفي حقيقـة الإشـهاد والإخراج هل هو حسي حقيقي أو معنوي؟ على قـولين مـشهورين، ومـن أهل العلم من توقف في ترجيح أحدهما خصوصاً في المفسرين، ومن العلماء من حاول وأراد الجمع بين القولين فكان قوله مخالفـاً للقـول الـصواب إنـه حسي حقيقي، ومال إلى القول الثاني أو صار جمعه هو نفس القول الثاني إنـه معنوي، ومن هؤلاء الجرجاني وحافظ الحكمي.

القول الأول: قول الجمهور وقد قال به عمر بن الخطاب وابن عبـاس وغيرهم من الصحابة والحسن الطبري والقرطبي وغيرهم كثير.

وهؤلاء قالوا إن الأحاديث مفسرة للآية وإنها في معنى واحد، وتقدم هذا القول في حقيقة الميثاق وخلاصته وصفته كما مر بك: إن الله مسح ظهر آدم ثم استخرج من ظهره الذرية حساً وحقيقـةً وكلمهـم قِـبَلاً أي مقابلـة معاينة من غير واسطة فسألهم ألست بربكم فشهدوا أنه الإله المعبود وحده، ثم أخذ الميثاق عليهم بالإشهاد على شهادتهم، وشـهد علـيهم الله سـبحانه والملائكة وأبوهم آدم والسماوات والأرض، ثم قسمهم قسمين أهـل يمـين وأهـل شـمال، ثـم عرضـهم عـلى آدم ورأى فـيهم وبـيص الأنبيـاء، ورأى

الصحيح والمريض، وبعد ذلك ردهـم الله وأرجعهـم إلى صـلب آدم حـساً وحقيقة.

القول الثاني: أشهر من قال به من أهل السنة شيخ الإسلام ابن تيميـة وابن القيم وابن كثير وابن أبي العز شارح الطحاوية والشيخ ابـن سـعدي، وأما من المبتدعة فالمعتزلة القدرية.

وهؤلاء قالوا في معنى الآية: إن أخذ الله واستخراجه للذرية هذا إنـما هو نفس التوالد المعروف المعهود، فاستخرجوا مـن ظهـور آبـائهم عقـلاء مميزين بالتوالد، وإشهادهم المذكور في الآية بشهادة الحال لا شـهادة المقـال وهو عن طريق الفطرة، فالله خلقهم من ظهـور آبـائهم وأوضـح الأدلـة في أنفسهم وفي الكون على وجـوده وربوبيتـه وإلوهيتـه، فكـل إنـسان مولـود ومفطور على التوحيد، ولكنه يجحد ويكفر و لا يؤمن و لا يسلم بل يـدعي مع ذلك الغفلة أو التقليد.

وهم بهذا القول يجعلون موضوع الآية غير موضوع الأحاديـث التـي فيها المسح على ظهر آدم، ويضعفون الأحاديث التي فيها الإشهاد ويجعلون بعضها موقوف كما سيأتي في أدلتهم، والمرفوع منهـا يـضعفونه أو يـصرفونه عن معناه.

المبحث السادس

تحرير محل النزاع في المسألة ومنشأ الخلاف

قبل أن نذكر أدلة القول الثاني ونجيب عنها يجدر بنا أن نبين أوجه ومحل الاتفاق بين القولين وما حصل من خلاف فيه.

أولاً: مواضع الاتفاق والأمور التي اجمع عليها أصحاب القولين:

١ـ إن هناك ميثاقاً على اختلاف في معناه وصفته في الآية.

٢ـ إنه حجة على القولين، ولكن لا يكفي في التعذيب لمن كذب به وخالفه، و لا بد في تحقيق العذاب من إرسال الرسل ومخالفتهم إلا من شذ ممن لا يعتد بقوله فقال الميثاق حجة مستقلة كافية في إيقاع العذاب يوم القيامة.

٣ـ إن الناس مفطورون على التوحيد وعلى الفطرة وهي الإسلام إلا من شذ في خلافه في الفطرة.

٤ـ إن الله مسح ظهر آدم وجعل قسم في الجنة وقسم في النار، ورأى آدم داود من بين ذريته، وهذا الجزء قال به أكثر أصحاب القول الثاني.

ثانياً: محل الخلاف والأمور التي حصل الخلاف فيها:

١ـ اختلفوا في الميثاق: هل هو الفطرة أو شيء زائد عنها؟

٢ـ وهل استخرج الله من ظهر آدم الذرية استخراج حقيقي وكلمهم واستنطقهم وشهدوا بالتوحيد بكلام مسموع، أم أن هذا كله الفطرة، وأن الاستخراج والاستشهاد والكلام معنوي حالي لا حسي مقالي؟

٣ـ وهل الآية تفسرها الأحاديث أم أن الأحاديث في غير معنى الآية في اللفظ والمعنى؟ وهل هي صريحة صحيحة في تفسير الآية أم لا؟

سبب الخلاف ومنشأه:

هو إننا لا نذكر هذا الاستخراج وهذا الإشهاد، وعليه كيف يحاسبنا الله عليه يوم القيامة ونحن لا نذكره الآن؟ وغير ذلك من الاعتراضات والمخالفات العقلية لأمر غيبي قطعي كهذا، مما حمل بعض أهل العلم على القيام بتأويله.

المبحث السابع

أدلة القول الثاني واعتراضاتهم على الأحاديث والإجابة عنهم

تقدم تقرير الأدلة للقول الصواب وهو القول الأول من الآية والأحاديث، أما القول الثاني فأدلتهم على اعتبار أنها اعتراض على الأحاديث ورد على القول الأول وتفسير للآية أيضاً ، وإليك بيان أدلتهم .

أولاً: قالوا الآية لا تدل على ما ذهب إليه أصحاب القول الأول والأحاديث لا تفسر الآية ولاهي في معناها، ثم الأحاديث الصريحة في تفسير الآية يرمون بعضها بالضعف وبعضها بالوقف كحديث ابن عباس وعبد الله بن عمرو، و ما صح منها كحديث أنس فإنه يرون أنه لا يدل على الإشهاد الحسي.

الرد: إن هذه الأحاديث التي ضعفوها أو أوقفوها يوجد لها من الطرق ما يعضدها ويصحح أسانيدها مرفوعة، ولسنا في مقام بسط وإنا نحيل إلى ما ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، فقد تكلم عن أحاديث الميثاق وذكر أسانيدها وصحح كثير مما ضعفه أصحاب القول الأول. انظر كلامه تحت حديث رقم (١٦٢٣) من السلسة الصحيحة.

وأما ادعائهم أن الحديث الصحيح غير صريح، فهذا مردود بتضافر الأدلة التي فسر بعضها بعضاً، كما أن حديث أنس واضح الدلالة على ما ذهب إليه أصحاب القول الأول.

ثانياً: قالوا وأما الآية فلا يفهم منها ما قاله أصحاب القـول الأول لمـا يلي، وأوردوا اعتراضات وهي لابن القيم رحمه الله ذكرهـا في كتابـه الـروح ونقلها عنه شارح الطحاوية.

شبهات وأدلة أصحاب القول الثاني:

الشبهة الأولى: إن الله قال في الآية: «مـن بنـي آدم» ولم يقـل مـن آدم، وقال: «من ظهورهم» ولم يقل من ظهره وقـال: «ذريـتهم» ولم يقـل ذريتـه فدل على أنه التوالد المعهود .

الجواب: أنه لا تعارض لأن كون الأخذ من بني آدم وظهورهم أنه لا يخرج من كونهم خرجوا من ظهر آدم، ويكون أخذهم جيل بعد جيل حتـى اكتملوا أمامه، وقال ذرياتهم ولم يقل ذريته حتى لا يتوهم أن الأخذ كان في الأبناء دون الأحفاد.

الشبهة الثانية: إن هذه الـشهادة عـلى القـول بأنهـا حقيقيـة حـسية لا نذكرها والشاهد لا بد أن يذكر شهادته.

الجواب: هذا غير لازم فقد لا يذكر الإنسان شـهادته في الـدنيا وهـو بكمال عقله وفهمه، كيف وهذه الشهادة في عالم آخر عـالم الـذر، ونحـن لا نتذكر عالم الأجنة بل ولا حتى الطفولة قبل التمييز فكيف بهـذا فهـو أولى، ثم لا يستبعد أن نتذكر هذه الشهادة يوم القيامة وليس بمستحيل.

الشبهة الثالثة: إن الحجة في إرسال الرسـل و الإشـهاد بمعنـاه الـذي ذكرتموه حجة ويعذب مخالفه.

الجواب: إن القول بأن الحجة في إرسال الرسل فقط غير صـحيح بـل الميثاق حجة والفطرة حجـة والعقـل حجـة، كلهـا حجـج عـلى التوحيـد متضافرة مع إرسال الرسل، ولكن من رحمـة الله أنـه لا يعـذب بـأي حجـة مطلقاً سوى حجة إرسال الرسل.

ثم يلزمهم القول في تأويلهم الميثاق بالفطرة الـلازم الـذي أتـوا بـه، فكون الميثاق حقيقة وحساً أو هو الفطرة لا يخرج عن كونه حجة عـلى كـلا القولين، وكون الله جعل هذه الأمور حجج لا يدل ذلك على وقوع العذاب على مخالفها ما لم يأته رسول، فالفطرة حجة ومع ذلك لا يعذب مخالفهـا مـا لم يأته الرسول مثلها مثل الإشهاد الحسي، فليس من شرط الحجـة تعـذيب مخالفها فالحجة غير والعذاب غير، وعليه إذا كان الميثاق هـو مجـرد الفطـرة كما زعموا فهـل سـيقولون بـأن صـاحبها يعـذب ولـو لم يأتـه رسـول، أم سيقولون العذاب بإرسال الرسول مع أن الفطـرة حجـة وهـذا الـصحيح. فسنقول كذلك الإشهاد حجة و لا عذاب معه بـدون رسـول، وعـلى كـلا الأمرين فهم مخصومون.

الشبهة الرابعة: تذكيرهم الميثاق وهم غافلون ومعلوم أنا غافلون عن هذا الإخراج و لا نذكره.

والجواب من أوجه:

الأول: إننا لسنا بغافلين فالفطرة عند كثير من أهل العلم من أثار الميثاق ونحن لسنا بغافلين عنها.

الثاني: إن الغفلة المذمومة في الآية ليست الغفلة عن الإخراج والشهادة وإنما عن الالتزام بالتوحيد.

الثالث: ثم لا يمنع أن يتذكروا غفلتهم يوم القيامة و لا يستبعد من تذكر للميثاق والإشهاد يوم القيامة.

الشبهة الخامسة: إن الله ذكر لهذا الإشهاد و الاستخراج حكمتين حتى لا يدّعي الغفلة ولا التقليد وهذا لا يمكن دفعه إلا بإرسال الرسل.

الجواب: إن ما ذكرتموه ليس بصحيح؛ لأن الحجج على التوحيد متضافرة وكثيرة كل منها يمنع التقليد والغفلة؛ فأولها الاستخراج والميثاق ثم الفطرة ثم بعد ذلك يأتي إرسال الرسل تؤيد ما سبق من الحجج، فكل هذه الحجج مجتمعة تمنع وتقطع الغفلة والتقليد في فعل الشرك، ولا يستلزم ذكر الله لحجة والتخصيص على أهميتها عدم وجود غيرها.

الشبهة السادسة: إن الله لـو عـذبهم بجحـودهم الميثـاق دون إرسـال الرسل لأهلكهم بما فعل المبطلـون والله لا يهلـك ولا يعـذب إلا بتكـذيب الرسل.

والجواب من أوجه:

الأول: إننا لا نخالف في أن الله لا يعذب إلا بتكذيب المرسلين، أما ما سواه فهو حجة، ولكن من رحمة الله أنه لا يعذب بمخالفتها سـواء كانـت الحجة الميثاق والاستخراج أو الفطرة.

الثاني: إنه يلزمهم فيما أثبتوه مثل الذي أنكروه وفروا منه فلـو قلنـا إن الميثاق في الآية ليس الاستخراج و إنما هو الفطرة فلو خالف الفطرة إنـسان وكذب بلازمها هل تقولون مثل ما قلتم في الاسـتخراج أو تخـالفون؟ فـإن قالوا: إن من خالف الفطرة استحق العذاب ولم يهلكه بما فعل المبطلون، قلنا: نقضتم أصل دليلكم من أن الله لا يعذب إلا بمخالفة الرسل وتكذيبهم.

وإن قالوا: إن من خالف الفطرة لا يستحق العذاب و لا يوصف بأنه أهلكه الله بما فعل المبطلون، فحينئذ نقول: فسروا لنـا هـذه الآيـة لأن الله لا يعذب بالفطرة وهم يفسرون الآية بمعنى الفطرة، وهـم في الآيـة احتجـوا على ربهم بأنه يهلكهم بما فعل المبطلون و لم يأت طـارئ لمخالفـة الرسـل في لفظ الآية، وقد احتجوا علينا بهذه الحجة فليدفعوها عن قولهم وتأويلهم.

الثالث: إن مؤاخذة من كذب بالميثاق وعدم قبول غفلته وتقليده راجع إلى تفريط من الكافر وادعاء الغفلة و التقليد حين كذب، ولو أراد الحق لوجده ولو سعى إليه لهدي إليه، فهذا مؤاخذ بتكذيبه بجميع الحجج وهو المراد، أما من سعى للحق فلم يعرفه فأراده ولكن عجز عنه فهذا غير مؤاخذ و لا معذب ومعذور بجهله.

وبعد هذا يتبين بطلان من تأول الميثاق إلى غير حقيقته؛ فأول الإخراج والإشهاد بالفطرة فقط دون الحقيقة المحسوسة، ويبقى القول الأول قول الجمهور واضح بين على الحق، وأما القول الثاني فله نصيب من الصحة ولكن ليس هو المقصود فقط من الآية ولا يخرج عن كونه تابع، فالفطرة تابعة للإخراج و الإشهاد كما أن الإخراج والإشهاد تابع للفطرة فبينهما ترابط، وكلها حجج على التوحيد يستحق من كذب بها أن يسأل عنها ويلام، وإذا زاد على ذلك تكذيب الرسل زاد في الملامة و العذاب يوم القيامة، وهذا له أمثلة منها: محاسبة الكافر على النعم وعدم شكرها، وكذلك محاسبة الأجير على الفاضل والزيادة من الأجرة إن قصر في العمل فإن أحسن أخذ أجرته والزيادة كرماً وإن أخل استحق العقاب على أخذه الأجرة والزيادة دون الوفاء.

المبحث الثامن

الـمـســائـــــل

بعد الحديث عن الميثاق وتبيينـه حـسب وروده في النـصوص وذكـر القول المخالف والرد عليه نذكر جملة من المـسائل الفرعيـة التـي ورد كثـير منها في ثنايا البحث و الموضوع، وفوائد مستخرجة من الأحاديـث، وهـذه المسائل منها العقدي، وغيره.

وقد جاء ترتيب المسائل بطريق مراحل الميثاق والأمور الحاصلة فيه.

الميثاق فالمسح والإخراج فالإشهاد فالقسمة فعرضهم على آدم فردهم إلى صلبه ومسائل أخرى متفرقة:

المسألة (١): موضوع الميثاق:

أخذ الله العهد والميثاق علماً وعملاً وإلزاماً من الناس على أن يوحدوه في الوهيته وربوبيته ولا يشركوا في عبادته أحداً وأقروا بوحدانية ألوهيتـه، وشهدوا بذلك وأشهد عليهم وهذا خلاصة قولـه: ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾.

المسألة (٢): علاقة الميثاق بالعقيدة والتوحيد:

موضوع الميثاق يدخل في أبواب الاعتقاد من جهات:

الأول: التوحيـد وشـهادة ألا إلـه إلا الله والإقـرار عليهـا بالميثـاق والفطرة، حيث أن الميثاق هو حجة في توحيد الإلوهية والبراءة من الشرك.

الثاني: القدر، وذلك لأن الميثاق تقدير سابق وخلق وفيه قسمة للناس بين أهل يمين وأهل شمال، فيدخل ضمن مراتب القدر الأربع، كما أنة أحد التقدير فتقدير الميثاق أتى بعد التقدير العـام، والقدريـة والمعتزلـة ينكـرون حقيقة الميثاق من هذا الباب وسيأتي كلامهم إن شاء الله تعالى.

الثالث: إن له علاقة بالغيب والأرواح لأنه في سـابق حياتنـا وعـالم لم نشاهده قص الله علينا خبره فوجب الإيمان به.

المسألة (٣): حجية الميثاق وهل هو حجة على الناس؟

الميثاق حجة على التوحيـد، ومعنـى الحجـة: الـدليل القـاطع المبـين للشيء بذاته، فالميثاق من ضمن الحجج على إفراد الله بالعبادة وهـي حجـج مستقلة في ذاتها على التوحيد، ولكن لـيس منهـا مـا هـو مـستقل في وقـوع العذاب سوى الحجة الرسالية.

المسألة (٤): هل الميثاق الحجة الوحيدة أم يوجد غيره؟

الحجج على البشر كثيرة أعظمها ثلاث:

١ـ الحجة الرسالية ببعثة الرسل وهذه أهم الحجج وأقواها.

٢ـ حجية الفطرة وهي فطرة الناس على التوحيد.

٣ـ حجية الميثاق والاستخراج الذي أخذ من ظهر آدم على ذريته.

والفطرة والميثاق ودعـوة الرسـل موضـوعها واحـد وهـو إفـراد الله بالعبادة.

المسألة (٥): هل يعذب الله بإنكار الميثاق وتكذيبه؟

من رحمة الله أنه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل وقطع العذر والحجة على خلقه، مع أن الميثاق والفطرة حجة كافية في ذاتها ولكـن في التعـذيب لم يجعلها الله كافية بل عضدها بإرسال الرسل قـال تعـالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥] ولكن الكافر الذي يكذب الرسل يحاسب على جميع الحجج بما في ذلك الميثاق كما يحاسب على النعم التي لم يقم بحقها لأن كفره مغلظ، ولذلك يسأل عنه كما في حديث عبد الله بن عمرو.

المسألة (٦): هل أخذ الميثاق على الملائكة؟

لم يؤخذ لأنهم مفطورون على الطاعة و لا يمكن أن يقعـوا في الـشرك كالبشر.

المسألة (٧): هل اخذ الميثاق على الجن؟

ميثاق الاستخراج خاص بذرية آدم وأما الجن فلا يدخلون فيه ولكن يدخلون في ميثاق الفطرة فيدخلون في عموم الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**» فالجن مثل الإنس مفطورون على التوحيد وملزومون به .

المسألة (٨): هل أخذ الميثاق من آدم وحواء؟

نعم أخذ منهم فشهدوا بالتوحيد كما شهدت ذريتهم ومن بينهم الأنبياء وشهدوا على ذريتهم.

المسألة (٩): هل للأنبياء ميثاق خاص؟

أخذ الله سبحانه على النبيين ميثاقين غير الميثاق العام الذي كان مع الذرية.

الميثاق الأول: ميثاق الدعوة:

أخذ عليهم الميثاق بتبليغ الدعوة والدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧] فالميثاق المأخوذ الغليظ على الأنبياء هو تبليغ الدعوة.

الميثاق الثاني: ميثاق الإتباع لمحمد ﷺ:

أخذ من جميع الأنبياء بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوه إن أدركوه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ٨١] وقد حصل ذلك منهم وأوفوا بميثاقهم عليهم الصلاة والسلام ومن شواهد ذلك:

١ـ إرجاعهم الشفاعة له يوم القيامة اعتراف منهم بفضله.

٢ـ إمامته لهم حين أسري به واعترافهم بنبوته حين قابلهم.

٣ـ البشارة به من الأنبياء السابقين.

٤ـ إتباع عيسى له آخر الزمان والعمل بشريعته.

٥ـ لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبع محمد ﷺ كما في الحديث.

وغير ذلك مما عملوه وفاءً منهم بحق هذا الرسول الخاتم.

المسألة (١٠): موقع الكفار من الميثاق وصفة شهادتهم:

المؤمن يشهد بالتوحيد في الميثاق شهادة رضا واختيار، والكافر يشهد بالتوحيد ولكن حقيقة شهادته أنها شهادة كره وإجبار، كما في بعض

تفسيرات الصحابة والـدليل: ﴿ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] فالكافر فيه الدلالة على الكره والبغض أدل وأولى.

المسألة (١١): أطفال المشركين:

يرى بعض أهل العلم أن أطفال المشركين يدخلون الجنة مستدلين بآية الميثاق؛ لأنهم باقون على الميثاق الأول والفطرة، ولم يحصل منهم تغيير له.

المسألة (١٢): هل ورد الميثاق في القرآن؟

هذه المسالة راجعة للخلاف في حقيقة الميثاق فمن يـرى أنـه حقيقـي وأنه استخراج محسوس قال إن الميثاق ورد في آية واحدة في القرآن في سورة الأعراف آية (١٧٢) وهو الصحيح، وأما أصحاب القول الثاني فقد حصل الاختلاف بينهم على قولين:

منهم من يرى أن الميثاق لم يرد في القرآن لا لفظاً ولا معنى.

ومنهم من يرى أن آيـة الأعـراف هـذه هـي الميثـاق ولكـن يفـسرها بالفطرة.

المسألة (١٣): من أين جاءت تسمية الميثاق بالميثاق؟

جاءت في حديث ابن عباس قال ﷺ: «**أخذ الله الميثـاق مـن ظهـر آدم بنعمان**». رواه النسائي وأحمد وتقدم فسماه الرسول الميثاق وأنه بمعنى الآية.

المسألة (١٤): لماذا سمي بالميثاق؟

لأن فيه عهد وإشهاد وشهادة حسية حقيقية فـصارت ميثـاق وعهـد يسأل عنه البشر.

المسألة (١٥): هل نشعر بالميثاق ونتذكره؟

أما في الدنيا فلا نتذكره و لا نشعر به، ومن أهل العلـم مـن قـال إننـا نشعر به ويقول ما هذه الفطرة إلا من آثاره، وكذلك محبـة الـرب والتوجـه إليه حتى من الكفار إلا من آثار ذلك الميثاق.

وأما في الآخرة: فإننا نتذكره ونشعر به حقيقتا بل ويسال الكافر عنه.

فائدة: ما الحكمة من عدم شعورنا بالميثاق والإخراج على هذا القول؟

أولا الإنسان لا يذكر نفخ الروح فيه وهو جنـين؟ وهـذا مـن جـنس ذاك، بل هو أولى في عدم التذكر مع حصوله فعدم تـذكرنا للـشيء لا ينفـي وقوعه، وفي ذلك ابتلاء الخلق وامتحانهم، والله أعلم.

المسألة (١٦): متى حصل الميثاق وأين؟

حصل بعد أن أخـرج آدم مـن الجنـة ونـزل الأرض في يـوم عرفـة في وادي نعمان قريباً من عرفة، هذا أصح مـا جـاء في البـاب، وهنـاك أقـوال أخرى ضعيفة.

المسألة (١٧): معنى الأخذ وإطلاقاته يراد بالأخذ ويطلق على أمرين:

الأول: أخذ العهد والميثاق علينا.

الثاني: أخذ بمعنى استخرج الذرية، وفي الحديث أخذ الله الذرية من ظهر آدم كما يؤخذ بالمشط من الرأس.

المسألة (١٨): الأمور الحاصلة في الميثاق:

الأول: الأخذ والاستخراج.

الثاني: المسح على ظهر آدم.

الثالث: تساقط الذرية والنسمات من ظهره.

الرابع: نثرهم أمامه.

الخامس: كلامه لهم قبلاً بلا واسطة و لا حجاب وندائهم.

السادس: إشهادهم على ألوهيته وإفراده بالعبادة.

السابع: شهادة الذرية بالتوحيد وإقرارهم بذلك.

الثامن: إفاضته بهم في كفيه سبحانه.

التاسع: قسمتهم وتمييزهم بين أهل يمين وأهل شمال.

العاشر: خلطهم مع بعضهم مرة أخرى.

الحادي عشر: وقوع الشهادة على الذرية فشهد عليهم الله وملائكته وأبوهم والسماوات و الأراضين.

الثاني عشر: عرضهم على آدم وتعريفه بهم أو رفعه عليهم حتى رآهم.

الثالث عـشر: رؤيـة آدم لهـم وسـؤاله عـنهم ورؤيـة أنـوار الأنبيـاء (الوبيص).

الرابع عشر: إرجـاع الله الذريـة مـرة أخـرى إلى صـلب آدم بعـد أن أشهدهم وشهدوا وشهد عليهم وبعد عرضهم على آدم ردهم الله إلى ظهـر آدم.

هذه الأمور والأشياء الحاصلة في الميثاق حين خرجت الذرية من ظهر آدم، وسبحان الذي خلق فسوى وقدر فهدى.

المسألة (١٩): ترتيب هذه الأمور:

وردت أحاديث كثـيرة مـشكلة مـن حيـث ترتيـب الأمـور الـسابقة وتقديم بعضها على بعض، مثل الإشهاد والتمييز أيهما أسـبق، وعـرض آدم هل كان قبل الإشهاد أو بعده، والذي يظهر والله أعلم جمعاً بين الأحاديـث ما يلي:

إن الله مسح ظهر آدم فاستخرج أهل اليمين، ثـم مـسح مـرة أخـرى فاستخرج أهل الشمال، ثم نثرهم أمامه، ثم نادى أهل اليمين: يا أهل اليمين قالوا: جميعاً لبيك وسعديك، ثم نادى أهل الشمال فأجـابوه فقـال: ألـست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا، ثم أفاض بهم في كفيه وميـزهم وقـسمهم فقـال:

هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار و لا أبالي، ثم خلطهم، ورفـع آدم عليهم وعرضهم على آدم، فرآهم ورأى المريض والصحيح، فسأل ربه عـن الحكمة، ثم رأى الأنبياء ومن بينهم داوود وأعطاه من عمره أربعـين سـنة، ثم ردهم الله في صلبه وظهره مرة ثانية بعد ما شهد علـيهم وأشـهد علـيهم ملائكته وأشهد أباهم علـيهم. والله أعلـم وسـيأتي مزيـد بيـان في مـسائل قادمة.

المسألة (٢٠): صفة الأخذ:

جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: إن الله أخذ من ظهر آدم كما يؤخذ بالمشط من الرأس.

المسألة (٢١): علاقة الأخذ بالمسح والاستخراج:

إن الأخذ حصل بالمسح وبتمام المسح حصل الإخراج، فالأخـذ كـان عن طريق مسح ظهر آدم.

المسألة (٢٢): كيف خرجت الذرية؟

حين مسح الله عز وجل بيده ظهر آدم تـساقطت الذريـة، وفي بعـض الآثار ضرب منكبه كما في حديث أبي الدرداء.

المسألة (٢٣): من أين خرجت الذرية؟

من ظهر آدم وصـلب ظهـره، وجـاء في بعـض الأحاديـث: إن أهـل اليمين خرجوا من صفحة ظهـر آدم اليمنـى، وأهـل الـشمال خرجـوا مـن صفحة ظهر آدم اليسرى، وجاء في بعض الآثار: إنهم خرجـوا مـن منكبـي (كتف) آدم؛ أهل اليمين حين ضرب كتفه (منكبه) الأيمن، وأهـل الـشمال بضرب منكبه الأيسر.

المسألة (٢٤): الجمع بين ضرب المنكب ومسح الظهر:

لا تعارض بين الأحاديث التي فيها مسح الظهر وحديث أبي الـدرداء الذي فيه ضرب المنكب، بأن يكون مسح الظهر أولاً ثم ضرب المنكب بعد ذلك أو العكس، أو يكون ضرب المنكب تعبير عن المسح من الراوي، والله أعلم.

المسألة (٢٥): كم مرة مُسح على ظهر آدم؟

جاء في حديث عمر أنها مسحتان: المسحة الأولى استخرج الله بها أهل اليمين بيمينه، والمسحة الثانية بيده الأخرى واستخرج بها أهل الشمال، وفي بعض الأحاديث أطلق المسح دون ذكر المسحتين، والراجح والله أعلم إنهـا مسحتان، والحديث الذي فيه مسح واحد مطلق يحمل على الروايات المقيدة لها بمسحتين.

المسألة (٢٦): هل خرجت الذرية من ظهر آدم أومن ظهور بنيه؟

لا تعارض فقد خرجت كل ذرية من ظهور آبائها جيل بعد جيل حتى اكتملت في الإخراج، فتساقطت كل نسمة الله خالقها، فخروجها من بني آدم لا ينافي أنها خرجت من ظهر آدم الأب بمسح الله على ظهره.

المسألة (٢٧): ما القدر الذي خرج من الذرية وهل خلقت الأرواح؟

الذي أخرجه الله الصور وأما الأرواح فجاء في أثر موقوف على أبي بن كعب إن الله جعل لهم أرواحاً ثم صورهم، وفي حديث آخر: إن آدم رأى روح داوود، وكانت صورهم كهيئة الذر فصور النسمة واستخرجها واستنطقها، والله أعلم بكيفية ذلك، وهذا من الأمور الغيبية التي نؤمن بها من دون الخوض في الكيفية.

تنبيه:

معنى الذر: أي صغير النمل، ويطلق بعض العلماء على هذه لمرحلة والفترة بعالم الذر مثل عالم الأجنة، وهذه المرحلة مرت بكل البشر.

المسألة (٢٨): هل يعد هذا الإخراج من الخلق وهل الذرية خلقت؟

الخلق على مراتب: التقدير والتصوير والإبراء، فالذي حصل بعض مراتب الخلق، قدر الله وصور الذرية وخلقهم كهيئة الذر وليس على هيئتنا هذه والله أعلم .

المسألة (٢٩): هل خلقت الأرواح حين الإخراج؟ وهل هـي مخلوقـة الآن؟ وهل سبقت الأجساد في الخلق؟

ذهب ابن حزم وغـيره إلى أن الأرواح قديمـة خلقـت يـوم أخـذ الله الميثاق ويستبقيها حتى تنفخ في جسد صاحبها، وهذا خطـأ منـه لأن الـذي خلق صور الأرواح وعلى افتراض الأرواح فخلقها الله لها لا يدل عـلى أنهـا خلقت خلقاً مستقراً واستمرت موجودة ناطقة، بل دلت الأحاديث على أن الله أرجع الذرية إلى صلب آدم مرة ثانية، فهي لا تخلق إلا إذا خلـق الجـسد ثم نفخ فيه الروح.

ولابن القيم بسط للمسألة في كتابه الروح.

المسألة (٣٠): أين ذهبت الذرية بعد ما أخرجت وتم الإشهاد؟

ردها الله وأرجعها ثانية إلى صلب آدم وظهره.

المسألة (٣١): ما أعظم ما وقع في الميثاق؟

شهادة الذرية بالتوحيد والإشهاد عليهم أي على شهادتهم .

المسألة (٣٢): أركان الشهادة:

المشهد: الله عز وجل.

الشاهد: الذرية.

المشهود عليه: الذرية.

المشهود فيه: التوحيد.

الشاهد عليه: الرب جل في علاه وملائكته وآدم والذرية والسموات والأرض.

المسألة (٣٣): وقعت الشهادة على أمرين:

الأول : الشهادة بالتوحيد.

الثاني : الشهادة على هذه الشهادة بأخذ العهد فيها، والشهادة على الذرية أنهم شهدوا وأقروا وعاهدوا.

المسألة (٣٤): أوجه شهادة البشر على أنفسهم:

الأول: شهادة كل إنسان على نفسه.

الثاني: شهادة بعضهم على بعض فيشهد كل إنسان على صاحبه.

الثالث: شهادة آدم عليهم.

المسألة (٣٥): مَن الذي شهد على الذرية في إقرارهم بالتوحيد؟

١ ـ الذرية أنفسهم.

٢ـ أبوهم آدم.

٣ ـ الرب عز وجل.

٤ـ ملائكة الرحمن.

٥ـ السماوات والأرض.

المسألة (٣٦): معنى الشهادة:

العلم بمعناها والعمل بمقتضاها والالتـزام بمـدلولها والإخبـار بهـا والإقرار عليها، فيشهدون على أن الله المستحق وحده العبـادة علـماً وعمـلاً وإقراراً والتزاماً، وشهدوا على ذلك وأخذ العهد عليهم والميثاق بذلك.

المسألة (٣٧): الفرق بين الإشهاد والميثاق:

الإشهاد يطلق على أمرين كما تقدم:

الشهادة بالتوحيد والعمل به، والشهادة عليـه أي عـلى الـشهادة بـه، فيشهد على نفسه أنـه أقـر والتـزم، ويـشهد عليـه غـيره في هـذه الـشهادة، فالإشهاد يطلق على أحد أمرين أو مجموعها.

أما الميثاق:

فهو من الشد والوثق فهو أغلظ من مجرد الشهادة، فلا يطلق على أحد المعنيين، وإنما عليهما معاً على التوحيد والشهادة به، فلا يسمى ميثـاق إلا إذا شهد بالتوحيد وشهد عليه غيره مع نفسه بأنه شهد، ففي هذه الحالة يسمى ميثاق، فالميثاق الذي جمع شهادتين: شهادة بالشيء وشهادة عليه.

المسألة (٣٨): الحكمة من الإشهاد على الميثاق:

١ـ حتى لا يدعي أحد من الذرية الغفلة.

٢ـ وحتى لا يدعي أحد منهم التقليد للآباء. كما نصت الآية عليهما .

المسألة (٣٩): مَن الذي شهد بالميثاق ومن شهد عليه؟

الشاهد بالتوحيد: الذرية.

والشاهد على هذه الشهادة: الله عز وجل والملائكة والسماوات والأرض وأبوهم والمؤمنون.

المسألة (٤٠): هل شهادة الذرية شهادة لسان ومقال أو شهادة حال؟

شهادة الذرية بالتوحيد فهي شهادة مقال مع شهادة الحال، وأما بعد أن خلقهم ونسوا وكفروا بشهادتهم في الميثاق فانقسموا إلى قسمين:

المؤمن: شهادته بالتوحيد شهادة حال ومقال قبل أن يخلقهم وبعد أن خلقهم.

الكافر: شهادته بالتوحيد شهادة حال لا شهادة مقال والدليل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[لقمان: ٢٥] ولكن لم يلتزموا بلازم هذه الشهادة وهي إفراد الله بالعبادة، فهذا بعد أن خلقهم أما قبل أن يخلقهم وهم في عالم الذر فشهد الكافر شهادة حال

وشهادة مقال كالمؤمن، وإن كانت شهادته عن كره وبغض وإجبار إلا أنه شهد وتكلم وقال كما تقدم.

مثال لشهادة الحال: قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة:١٧]. فشهادتهم هنا على أنفسهم شهادة حال لا مقال.

المسألة (٤١): هل نشعر بالشهادة؟

تقدم الكلام عن الإحساس بالميثاق فنحن نشعر بشهادة الحال، أما شهادة المقال ففي الدنيا لا نشعر بها، وأما في الآخرة فنشعر بها ويسأل الكافر عنها.

ويرى بعض أهل العلم أن الفطرة من آثار الشهادة المقالية، وعليه فنشعر ببعض آثار تلك الشهادة في الدنيا والله أعلم.

المسألة (٤٢): انقسام الناس في الميثاق:

انقسمت الذرية في الشهادة والميثاق إلى مؤمن وكافر؛ إلى أهل يمين وخير بيض الصور وهم أهل الجنة، وأهل شمال وشر سود الصور وهم أهل النار.

المسألة (٤٣): متى حصل هذا الانقسام وكيف؟

حصل يوم مسح الله ظهر آدم حيث قسمهم وميزهم إلى أهـل اليمـين وأهل الشمال، وقسمتهم بذلك يرجع إلى علم الله بما كانوا عاملين وليس أنه سبحانه أجبرهم على الشر وأولئك على الخير، بل جعـل لكـل إنـسان إرادة يختار بها الخير أو الـشر الإيـمان أو الكفـر، وعلـم الله قبـل أن يخلقهـم مـن سيؤمن ومن سيكفر لكمال علمه وحكمته، ولن يطاع إلا بإذنه ولن يعـصى إلا بعلمه، ولو شاء لجعلهم كلهم مؤمنين.

المسألة(٤٤): صفة قسمتهم:

جاء في بعض الأحاديث: فميز أهل اليمين وميز أهل الـشمال؛ فأهـل اليمين ميزهم بالبياض وجعلهم في يمينه، وأهـل الـشمال ميـزهم بالـسواد وجعلهم في يده الأخرى.

المسألة (٤٥): هل خرجوا من موضع واحد أو موضعين؟

خرج أهل اليمين والشمال من ظهر وصلب آدم، ولكن أهـل اليمـين من صفحة ظهره اليمنى، وأهل الشمال من صفحة ظهره الـشمال اليـسرى، وبعض الأحاديث أخرج أهل اليمين حين ضرب الله منكـب آدم الأيمـن، وأهل الشمال حين ضرب منكب آدم الأيسر.

المسألة (٤٦): هل اختلفت شهادة القسمين؟

في اللفظ لم تختلف فأهل اليمين والشمال قالوا لبيك وسعديك حين ناداهم الله: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ثم شهدوا، ولكن أهل اليمين شهدوا برضا واختيار، وأهل الشمال أجابوا وشهدوا شهادة كره ، وكلهم أجاب حين سئل الله.

المسألة (٤٧): هل قسم الله الذرية مع الإخراج أو بعده؟

الذي يظهر لي – والله أعلم – أن الانقسام حصل على مرحلتين:

الأولى: خروجهم كان بمسحتين كل مسحة أخرجت قسم ثم نثرهم.

الثانية: بعد أن نثرهم وأشهدهم ميزهم فقبض أهل الشمال بيد وأهل اليمين باليمنى، وجعل أهل اليمين بيض الصور وأهل الشمال سود الصور، ثم خلطهم وردهم لصلب آدم، فيكون التمييز بعد ما أخرجهم منقسمين بمسحتين، هذا ما ترجح لي من الأحاديث لأن بعض ما صح منها يبين أنهم خرجوا منقسمين أهل يمين وأهل شمال، وبعضها يدل أن التمييز والانقسام إنما كان بعد الإخراج والإشهاد فيدل على أن الانقسام في الإخراج غير التمييز. والله أعلم.

المسألة (٤٨): هل هذا الانقسام والتمييز بعد الإشهاد أو قبله وبعد تمام الإخراج أو أثناءه؟

ترتيب هذه الأمور قد يُشكل، ولذلك سنسبر الترتيب حسب ما ورد في الأحاديث فقد جاءت روايات وصيغ في ذلك:

١ـ أخرج أهل اليمين وأشهدهم ثم أهل الشمال وأشهدهم.

٢ـ أخرج أهل اليمين ثم أخرج أهل الشمال ثم أشهدهم مع بعضهم.

٣ـ أخرجهم جميعاً أهل اليمين والشمال دون تمييزهم ثم أشهدهم ثم قسمهم.

٤ـ أخرجهم جميعاً ثم قسمهم ثم أشهدهم.

٥ـ هل ما حصل من عرض الذرية على آدم قبل أن يقسمهم أو بعده وقبل الإشهاد أو بعده؟

٦ـ هل هذه الأمور المسح والإشهاد والتمييز والانقسام وعرضهم على آدم حصل مرة أو مرتين؟ والذي يظهر أن المسح مرتين والانقسام قبل التمييز فيكون مرتين قسمهم ثم بعد أن أشهدهم ميزهم. والله أعلم بالصواب.

هذا ما وصل إليه اجتهادي القاصر بين الأحاديث، وعلى ذلك فيكون ترتيب هذه الأمور الحاصلة في الميثاق والإخراج يفهم بمجموع الأحاديث، وقد ذكرتُ الترتيب في المسألة التاسعة عشرة.

المسألة (٤٩): الأمور التي لها علاقة بانقسام الذرية:

من الأمور التي لها علاقة بانقسام الذرية كما تقـدم الإفاضـة والخلـط والنشر والقبض والإسقاط والتمييز:

١ـ التمييز: تمييز أهل اليمين عن أهل الـشمال بعـد أن قـسمهم حـين أخرجهم بمسحتين.

٢ـ النشر: بعد أن قسمهم نثرهم أمامه أهل اليمين وأهل الشمال.

٣ـ التساقط: بعد أن مسح تساقطوا أهل اليمين وأهل الشمال.

٤ـ الإفاضة: وهي: أن الله أفاض بالذرية في كفيه ثم ميز بيـنهم أهـل اليمين وأهل الشمال.

٥ـ القبض: إن الله في بعـض الأحاديـث قـبض أهـل اليمـين بيمينـه وأهل الشمال بالأخرى.

٦ـ الخلط: بعد أن قسمهم خلطهم مرة أخرى.

المسألة (٥٠): رؤية الذرية وعرضهم على أبيهم آدم:

من الأمور التي حصلت عند الإخراج عرض الذرية عـلى أبـيهم آدم ورؤيته لهم.

المسألة (٥١): الأمور التي عرضت على آدم ورآها:

١ـ رأى حسن الصورة والمبتلى والمريض فسأل ربه لما لم تسوي بين ذريتي؟ فقال: أحببت أن أشكر.

٢ـ رأى وبيص ما بين الأعين.

٣ـ رأى الأنبياء ورأى من بينهم داود وأعطاه من عمره أربعين سنة.

المسألة (٥٢): صفة عرض الذرية على آدم:

يحتمل أن يكونوا عرضوا على آدم، أو إن آدم رفع عليهم فرآهم، وقد وردت الأحاديث بالمعنيين، ولا يمنع أن يكون آدم رفع عليهم وعرضوا عليه واجتمع المعنيان.

المسألة (٥٣): جهل آدم بذريته:

لما عرضت الذرية على آدم سئل عنهم ولم يعرفهم فقيل له هؤلاء ذريتك.

المسألة(٥٤): إرجاع الذرية إلى صلب آدم:

فبعد أن حصلت هذه الأمور العظام رد الله الذرية لظهر آدم وأرجعهم إلى صلبه، وما زالت الذرية تخرج بعد ذلك من أصلاب آبائها إما مؤمنة ملتزمة بالميثاق أو مكذبة مخالفة.

المسألة(٥٥): هل استشكل الصحابة ﭫ الميثاق؟

لما سُئل عمر بن الخطاب ﭬ عن الآية أجاب: إنه قد سأل رسول الله ﷺ عنها فأجابه، وتقدم الحديث، فالصحابة وإن كانوا استشكلوا الميثاق إلا أنهم آمنوا وأقروا من غير تأويل.

المسألة (٥٦): هل يضلل المخالف في الميثاق؟

المخالفون في الميثاق قسمان:

١ـ بعض أئمة أهل السنة اجتهاداً أمثال شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وابن أبي العز وغيرهم وهؤلاء أوّلوا الميثاق من الحس إلى المعنى.

٢ـ الضالون من المبتدعة كالقدرية من المعتزلة وغيرهم وهؤلاء خالفوا لأصول فاسدة عندهم.

المسألة (٥٧): سبب خلاف القدرية في الميثاق:

خالفت القدرية في الميثاق لأصولهم الفاسدة في القدر ومنها:

١ـ إن أفعال العباد غير مقدرة لله و لا مخلوقة.

٢ـ إن في تقسيم الناس لمؤمن وكافر قبل العمل ظلم لهم، فكيف يحاسبون على ما لم يعملوه! وفي ذلك إجبار لهم بأن يلتزموا أحد الطريقين وغير ذلك وهذا ضلال بين.

فالله حكم بذلك لسابق عالمه، ومن أنكر ذلك فقد كفر أي من قال

إن الله لا يعلم أن الكافر سيكفر إلا إذا وقع كفره فهو كافر وهذا قول غـلاة القدرية أتباع معبد الجهني وغيلان الدمشقي وكفرهم ابن عمر ﷺ.

و أما كونه قسمهم قسمين فلا ينافي أن الله جعـل لهـم اختيـار و إرادة ومشيئة تختار إحدى الطريقين وان كان كل ذلك راجـع لعلـم الله وتقـديره ومشيئته وخلقه .﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ التكوير: ٢٩.

المسألة (٥٨): هل يعذر الجاهل بالميثاق إذا كفر؟

الكافر الجاهل لا يخلو من أمرين:

١ـ أن يكون قد بلغته دعوة الرسل أو سمع بها فكذب أو أعرض أو تجاهل وغفل، وهذا لا يعـذر بجهلـه ولا غفلتـه فمـصيره النـار والعـذاب ويحاسب و لا يعذر.

٢ـ إذا لم تبلغه دعوة الرسل فهذا كافر في الدنيا وحكم الظـاهر وأمـا في الآخرة فمن رحمة الله أنه لا يعـذب إلا بعـد إرسـال الرسـل فيرسـل لـه رسول يوم القيامة مع أنه خالف العقل والفطرة والميثـاق، ولكـن رحمـة الله ومحبته لقطع العذر والحجة فوق ذلك.

المسألة (٥٩): هل التقليد من موانع التكفير وعوارض الأهلية؟

الغفلة والتقليد ليست من عوارض الأهلية مثل الجنـون ونحـوه ولا

تمنع من التكفير ولا العذاب يوم القيامة إذا كان الإنسان غـافلاً أو مقلـداً، لأنه بإمكانه أن يعلم الحق ويعمل به ويبحث عنه، ولو فـرض عجـزه عـن ذلك فإن التكفير واسم الكفر يلحقه دون العذاب، فالعذاب لا يلحق مـن أراد الحق وعجز عنه جهلاً لا عن إعراض وتفريط.

المسألة (٦٠): هل يوجد إشكالات في الميثاق؟ وما الواجب تجاهه؟

قد يتوهم الإنسان في بعض الأمور الغيبية إشـكالاً، مثالهـا في الميثـاق أننا لا نشعر بالميثاق ولا نحس بالإخراج و الإشهاد.

ولكن المؤمن يسلم في أمور الاعتقاد و لا يعـارض بعقلـه و لا يـؤوّل بل يؤمن بالغيب، وليقس ذلـك عـلى أمـور الـشهادة فهـو لا يفهمهـا عـلى حقيقتها فكيف بالغيب، من استشكل الخروج وأنه لا يذكره فليسأل نفـسه هل يذكر وقت خروجه إلى الدنيا من بطن أمه؟ وهـل يـذكر حـين كـان في صلب أباه؟ وهل يذكر وهو جنينا وقت نفخ الروح فيه؟ بل هل يذكر حال طفولته؟ إذا كان الإنسان لا يعلم هذه الحقائق فكيف يذهب لعـالم أسـبق؟ عالم الذر ويدخل عقله مستشكلاً الأمور الغيبية.

ويلزمه من اللوازم مثل مـا فـر منـه، فعـلى المـؤمن أن يـسلم ويـؤمن ويرضى و لا يعارض بعقله مهما يكن السبب.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فـهـرس الموضوعات